

أمك ثم أمك

الكاتب



يوسف أبو لوز

أمك، ثم أمك.. تصف الراقصة الأمريكية إيزادورا دونكان وجع مخاض الولادة بـ «الرعب»، وتقول «.. كما لو أن أحداً وضع مثقاباً في عمودي الفقري محاولاً تمزيقه»، وفي مكان آخر تقول «استمر هذا الرعب الذي لا يُوصف على مدى يومين وليلتين. وفي صباح اليوم الثالث أحضر هذا الطبيب زوجاً من الكلابات الهائلة، ومن دون مخدر من أي نوع قام بعملية الجزارة (الولادة)».. ولاحظ أن هذه الجزارة كانت في نهاية القرن التاسع عشر. ولكن، على رغم كل هذا الرعب الذي كانت تشعر به دونكان، اقرأ كيف يتورّد وجه الأم بعد الولادة مباشرة، وكيف يتدفق حليب الرضاعة، وتتحول لحظة الجزارة تلك مجرد أن يخرج الجنين من رحم أمه إلى الحياة.. تتحول إلى نهر من المحبة.

ويا سبحان الله، ما أجمل الإنسان، ما أقواه، وما أضعفه في الوقت نفسه.. ما أضعفه، تحديداً أمام طفل.. لقد أنجبت دونكان في ذلك اليوم طفلة وصفتها بأنها معجزة.

تقول إنها بحثت بفمها عن ثديي وعضّته بفكين لا أسنان فيهما، وجذبتة، وشربت الحليب الذي تدفق منه.. وتتساءل السيدة التي كانت قبل قليل في قلب «الرعب».. تتساءل: مَنْ مِنَ الأمّهات أخبرتنا عن مشاعرها عندما يتدفق الحليب لرضيعها؟.. وتقول دونكان وقد تخلّصت تماماً من الرعب: أوه، أيتها النساء، ما الشيء الطيب فينا الذي يجعلنا نتعلم حتى نصبح محاميات ومصوّرات ونحاتات، بينما هذه المعجزة قائمة؟ الآن عرفت ذلك الحب الغامر الذي يفوق حب المرأة للرجل. كنت ممددة أنزف ممزقة لا حول لي. بينما ذلك الكائن الضئيل يرضع وينوح:.. الحياة، الحياة، الحياة!.. امنحيني الحياة.. أوه أين كان فنّي؟ فنّي أو أي فنّ كان؟.. ما الذي يعني في الفن؟

كان الرقص بالنسبة لإيزادورا دونكان هو كل شيء. وكل حيّ. وكل جماد، الرقص ونهاية العالم، وحين رأت طفلتها وتدفق الحليب انقلب كل شيء في كيان هذه المرأة التي كانت قبل قليل على وشك الموت. تقول: اعتدت في الأسابيع الأولى بعد الولادة أن أرقد لساعات طويلة، والوليدة بين ذراعي متأملة إياها نائمة، أحياناً،

اضبط نظرة محدّقة مصوّبة من عينيها شاعرة بالقرب الشديد من حافة لغز الحياة.. وتقول أخيراً: لا يمكنني أن أجد أية كلمات على الإطلاق لوصف هذه السعادة... وفي رأيي تحوّلت دونكان من راقصة إلى كاتبة في اللحظة التي تدفّق حليب صدرها في فم طفلتها
yabolouz@gmail.com

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024.